الفنون الفاطمية

د منى عثمان الغُباشي

الفرقة الثانية شعبة الآثار الإسلامية قسم الآثار

الجزء الأول من التُحف الخشبية والعاجية

كانت مصر ولا تزال فقيرة في الخشب فإن ما يوجد بها من الشجر لا يستخدم خشبه إلا في أعمال النجارة البسيطة ومثل ذلك أشجار السنط ، نخيل البلح ونخيل الدوم، أشجار الجميز والصفصاف وكانوا يجلبون الأخشاب من تركيا وسوريا والسودان وجنوب أوروبا. وقد ذكر المقريزي في خططه أنه كان للخشب أسواق هامة في الفسطاط منذ العصر الطولوني.

ولقد ارتقى فن الزخرفة على التُحف الخشبية في العصر الفاطمي الذي يعد عصر ازدهار في العمارة والفنون التطبيقية ، فقد أولى الفاطميون عناية كبيرة بزراعة غابات من الأشجار للاستفادة منها في بناء الأسطول وعمليات البناء وصناعة المنتجات الخشبية وقد سنوا القوانين الرادعة التي تقنن عملية اقتلاع الأشجار إلا بعد الحصول على إذن بذلك لاستخدامها في أغراض البناء أو المنتجات الخشبية وكانت تفرض ضرائب على الأخشاب تحدد قيمتها طبقاً لنوع الخشب أو لبعده وقربه أو لصعوبة أو سهول الحصول عليه.

ولقد نجح الفنان في صناعة كافة المنتجات الخشبية سواء منها الثابت مثل الأبواب، الشبابيك والكرادى (الحوامل الخشبية) أو المنقولة مثل المنابر ، المحاريب المتنقلة ، كراسى العشاء، دكك المقرئين وكراسي المصحف. هذا بالإضافة إلى الحشوات الخشبية التي وصلتنا من المنشآت المدنية والمحفوظة بمُتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، والأحجبة الخشبية التي وصلتنا من الكنائس والتراكيب الخشبية فوق المدافن.

وقسم علماء الآثار بدراسة زخارف الأخشاب في العصر الفاطمي إلى ثلاث مراحل رئيسية هي :-

المرحلة الأولى : وهي تمثل زخارف القرن ٤هـ/١٠م تتسم زخارف هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

١- عودة ظهور الأرضيات مرة أخرى بعد أن كانت قد اختفت تماماً في أسلوب طراز سامراء الثالث، وقد ظهرت هذه الأرضيات في بداية الأمر بمساحات ضيقة ثم ازدادت مساحتها.

٢- عودة ظاهرة خروج العناصر النباتية الزخرفية من العروق النباتية بعد أن كانت تتوالد وتخرج من بعضها بطراز سامرا الثالث على الجص .

٣- ظهور عنصر نصف المروحة النخيلية ذات لفصين بحيث يطول الفصل العلوي قليلاً في انحناءه رشيقة إلى الخلف بينما يتضاءل الفص السفلي الذي قد يصبح عبارة عن التواء زخرفي

صغير قد يقصر بشكل أكثر حدة وتجويد بحيث يشبه النصل أو البلطة وهو ما يتضح في زخارف باب جامع الحاكم بأمر الله بُمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة وحجاب دير أبي مقار بوادي النطرون.

٤- تنفيذ الزخارف بأسلوب الحفر المائل أو المشطوف.

المرحلة الثانية :- تمثل زخارف القرن ٥هـ/١١م : تتميز زخارف هذه المرحلة بأنها أكثر تطورًا من المرحلة السابقة وتتسم بما يلي :-

١- أصبح الحفر قائماً وعميقاً بعد أن كان مشطوفاً

٢- أصبح الحفر على عدة مستويات تصل غالبًا إلى ثلاثة مستويات أعمقها هو الأرضية أو الفراغات ثم منطقة أخرى أكثر بروزاً وهي الزخارف النباتية ثم المستوى الثالث الأعلى وهو الرسوم الآدمية والحيوانية وتعطي هذه المستويات للزخارف تجسيماً وبروزاً يذكرنا بأسلوب الفن الهلينستي وإبراز عنصر الظل والنور

٣- أصبح عنصر المروحة النخيلية يظهر بشكل ممشوق وأكثر طولاً وإنحناءاً من المرحلة السابقة .

٤- عودة ظهور بعض العناصر النباتية الهلنيستية مثل :-

أ) كثرة ظهور الورقة النباتية ذات الثلاثة فصوص

ب) ظهور الفروع النباتية الحلزونية المثمرة

جـ) ظهور بعض العناصر النباتية المركبة كورقة العنب التي يتوسطها عنقود العنب أو بشكل برعمي يشبه كوز الصنوبر.

٥- شيوع تمثيل الرسوم الآدمية والحيوانية والطيور على المنشآت المدنية والكنائس والأديرة لتمثيل مناظر الطرب والشراب والصيد التي تعكس صورة الحياة الاجتماعية مثل الحشوات الخشبية الموجودة ببيمارستان قلاوون والمحفوظة بُمتحف الفن الإسلامي والحجاب الخشبي بكنيسة القديسة بربارة المحفوظ حالًيا بالُمتحف القبطي، والحجاب الخشبي بكنيسة أبى السيفين ومنبر جامع دير سانت كاترين سنة ٥٠٠م.

المرحلة الثالثة :- تمثل زخارف القرن ٦هـ/١٢م وتتسم زخارف هذه المرحلة بما يلي:

١- غلبه الطابع الهندسي وظهور الحشوات المجمعة

٢- شيوع استخدام الخط الكوفي المزهر وظهور الخط الثلث .

٣- حصر الزخارف النباتية بعد تصغير حجمها بحيث أصبحت دقيقة الشكل داخل تكوينات وتشكيلات هندسية.

٤- استمرار ظهور العناصر النباتية الهلينستية من ورقة العنب الخماسية، كيزان الصنوبر، الأوراق النباتية المركبة التي تحتوي بداخلها على شكل عنقود عنب أو بشكل برعمي صنوبري وظهور قرون الرخاء.

٥- تطور شكل نصف المروحة النخيلية تطورًا ملحوظاً فيه رشاقة وامتداد مع التواء الفص العلوي بشكل حلزوني ممشوق جميل.

٦- ازدياد التعقيد في الزخارف النباتية .

٧- تجسيم الزخارف وحفرها بعدة مستويات

٨- ظهور الطبق النجمي.

ومن أمثلة هذه المرحلة: باب من مشهد السيدة نفيسة من القرن ٦هـ/١٢م، تركيبة خشب من ضريح السيدة رقية (٥٣٣هـ) ، باب جامع الفاكهاني (٥٤٤هـ)، المحراب الخشبي المتنقل لمشهد السيدة رقية (٥٤٩/٥٥٥هـ)، منبر جامع العمري بقوص (٥٥٠هـ) ، باب جامع الصالح طلائع بن رزيك (٥٥٥هـ)، ومحرابا مشهدي السيدة رقية والسيدة نفيسة المحفوظان بمُتحف الفن الإسلامي بالقاهرة

النماذج المشروحة:

١- باب جامع عقبة بن نافع بمدينة القيرون ويؤرخ بالقرن ٤هـ/١٠م قوام زخرفته رسوم نباتية بارزة بالحفر يتضح فيها التأثر بزخارف سامرا يُ(مثل المرحلة الأول).

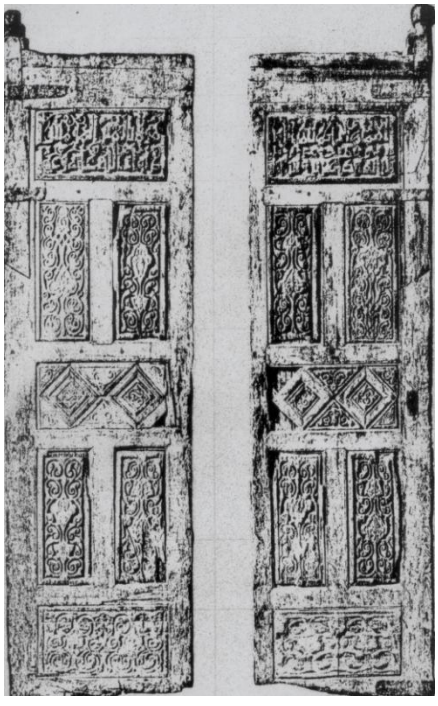

٢- باب جامع الأزهر للخليفة الحاكم بأمر الله ويؤرخ بسنة٤٠٠هـ/١٠١٠م وهو تاريخ تجديدات الحاكم بالأزهر:وقد نـُقل هذا الباب إلى متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، ويتألف من دلفتين زخرفت كل منهما بسبع حشوات أُفقية ورأسية، زخرفت بست حشوات بزخارف نباتية متطورة عن طراز سامرا على الجص وتتألف من أنصاف المراوح النخيلية مع تصغير المساحات أو الأرضيات التي تفصل من العناصر وتحتوى الحشوة السابعة الأُفقية بكل من الدلفتين على كتابات بالخط الكوفي المورق تـُقرأ "مولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين".

ومن الملاحظ أن الفنان قد أخطأ في تركيب الحشوتين فوضع الحشوة اليمنى مكان الحشوة اليسرى بحيث يقرأ أولاً في الحشوة اليسرى ثم اليمنى، ونفذت الزخارف والكتابات بالحفر المائل أو المشطوف وهو يمثل المرحلة الأولى في زخارف الأخشاب ومحفوظ بمُتحف الفن الإسلامي.

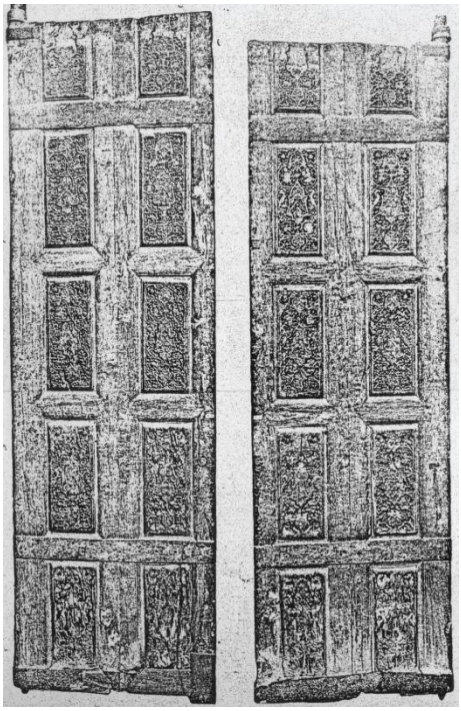

٤- باب القصر الفاطمي الذي وجد في بيمارستان قلاوون ونقل إلى متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ويؤرخ بالقرن ٥هـ/١١م: ويتألف من دلفتين بكل منهما عشر حشوات رأسية ذات زخارف تمثل المرحلة الثانية من حيث وجود الرسوم الآدمية والحيوانية والزخارف النباتية المتمثلة في الفروع النباتية الحلزونية التي تنبثق منها الأوراق النباتية وأنصاف المراوح النخيلية، ولقد نفذت بالحفر بأسلوب قائم وفي عدة مستويات.

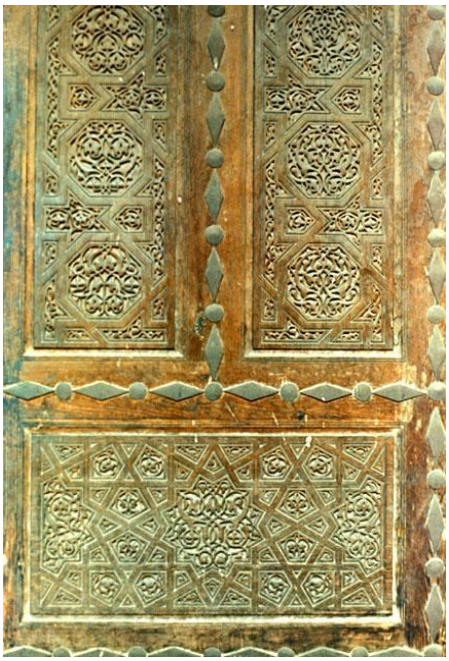

٥- باب الوزير الصالح طلائع بن رزيك سنة ٥٥٥هـ : ونقل إلى متحف الفن الإسلامي ويتألف من عدة حشوات أُفقية ورأسية يزخرف كل منها حشوات مجمعة ثمانية الشكل، كما يظهر ببعضها أشكال الطبق النجمي من ست كندات وهو يمثل المرحلة الثالثة لكونه عبارة عن حشوات مجمعة ومعشقة تحصر بداخلها زخارف نباتية بها عودة للعناصر الهلينستية واستخدمت المسامير المكوبجة وذلك لظهور تصفيح للأبواب الخشبية.

٦- منبر الخليفة المستنصر مؤرخ بسنة ٤٨٤هـ وعليه كتاب باسم الخليفة المستنصر ووزيره بدر الجمالي ولقد أمر الخليفة المستنصر بصناعته في عسقلان لمشهد الإمام الحسين غير أنه نُقل من عسقلان في عصر صلاح الدين الأيوبي إلى الحرم الخليلي بالقدس، ومن الملاحظ أن

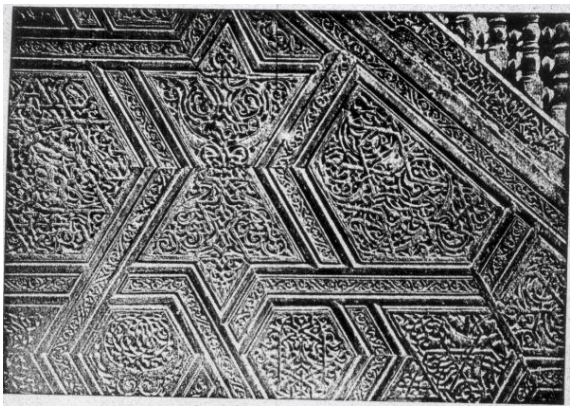

الفنان قد وفق في زخرفة حشوات هذا المنبر بأشكال هندسية مجمعة تحصر بداخلها زخارف نباتية ذات رواسب هلينستية من أنصاف المراوح النخيلية وأوراق نباتية ثلاثية وخماسية.

وبدراسة زخارف هذا المنبر يرجح أنه قد صنع خارج مصر لتطور زخارف حشواته عن المنتجات الخشبية المعاصرة في مصر لأن هذه السمات تمثل المرحلة الثالثة مما يدل على أن هذا التطور قد ظهر أولاً خارج مصر.

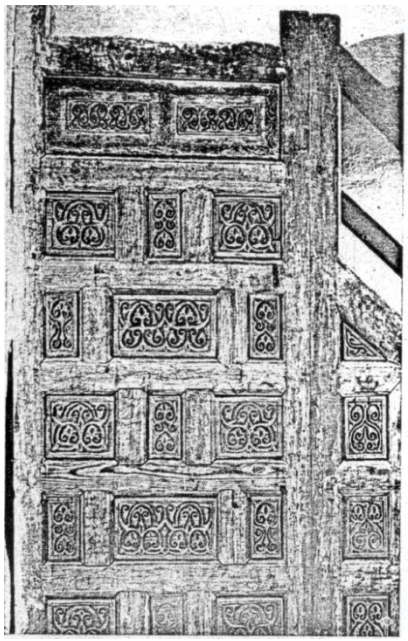

٧- منبر جامع دير سانت كاترين بسيناء الذي أمر بصناعته الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥٠٠هـ وهو يشبه في زخارفه منبر الخليفة المستنصر في زخارفه النباتية إلا أنه أقل تطورًا منه على الرغم من أن صناعته كانت في تاريخ تالٍ لمنبر المستنصر.

٨- محراب خشبي كان بالجامع الأزهر أمر بصناعته الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩هـ أثناء قيامه بتجديدات في الجامع ويعلوه لوحة خشبية تأسيسية ذات كتابات كوفية باسم الخليفة الآمر بن المستعلي بن المستنصر وزخرف هذا المحراب بالزخارف النباتية التي تؤطره وتزخرف الحشوات المُستطيلة بجانبي الحنية، وقوام هذه الزخارف نصف المروحة النخيلية بأسلوب المروحة الثالثة كما تزخرف جوانبه بحشوات مُستطيلة رأسية مزخرفة بشكل مزهريات ينبثق منها فروع نباتية وأوراق خماسية بطابع الفن الهلينستي.

٩- محراب مسجد السيدة نفيسة ويرجع لعهد الخليفة الحافظ عند تجديده لضريح السيدة نفيسة سنة٥٣٠هـ، وقوام زخرفته زخارف نباتية قريبة من الطبيعة متأثرة بطابع الفن الهلينستي ومحصورة داخل حشوات هندسية رأسية وأُفقية تؤلف ما يشبه حرف (T) وتعكس سمات المرحلة الثالثة ومحفوظ بمُتحف الفن الإسلامي.

١٠- محراب مشهد السيدة رقية ويحتوي على كتابات كوفية تذكارية تشير إلى أنه صنع بأمر من علم الآمرية زوجة الخليفة الآمر بأحكام الله غير أنه لا يرجع إلى عهد الآمر بل إلى عهد الفائز وهو ما يستنبط من أسماء رجال البلاط الذين كانوا يعملون

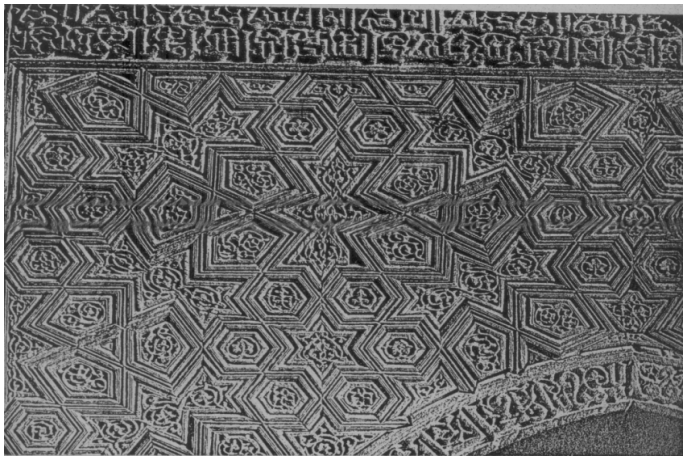

بخدمتها وهما أبو الحسن مكنون وأبو الحسن الفائزي نسبة إلى الخليفة الفاطمي الفائز، وبناء على ذلك يؤرخ المحراب فيما بين ٥٤٩ : ٥٥٥هـ : وقوام زخرفته زخارف نباتية دقيقة وصغيرة الحجم من الأفرع النباتية وأوراق وأنصاف المراوح وكيزان الصنوبر داخل حشوات هندسية مجمعة يظهر بها الطبق النجمي في بدايته الأولى ويؤطر المحراب من الخارج والداخل كتابات كوفية مورقة ومزهرة باسم علم الآمرية.

عزيزي الطالب يجب عليك الآتي:

١- شرح النماذج بالتفصيل مع مقارنتها بغيرها في باقي العالم الإسلامي

٢- إلقاء الضوء على الطرز الفنية والمعمارية من خلال التحف

٣- إلقاء الضوء على الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية والسياسية من خلال هذه التحف

٤- البحث في كتابك ومواقع الانترنت عن مزيد من التحف